بغداد الحاضرة

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثرُ

لا اخوض في تاريخ بغداد من اول امرها فان هذا قد تكفلت به الكتب وانما اريد ان اقول كلمة عن بغداد الحاضرة وارائي اولى بهذه الكلمة لان بغداد وطني وفيها نشأت . ولما رأيت كثيراً من الفضلاء يسألني عنها وعن الباقي من آثارها عزمت ان اكتب عنها شيئاً يغنيهم عن سؤالي ولست ببعيد العهد عن وطني فقد خرجت منهُ اوائل سنة ١٩١٤

تقسيم بغداد

تنقسم بغداد الى جانبين شهيرين الجانب الشرقي وهو جانب الرصافة وهو الآن اعظم قسميها وام في نظر اهلها والجانب الغربي وهو جانب الكرخ وهو اصغر من الاول واقل سكاناً واهلهُ من ابناء بغداد الاصليين لم يتبدلوا ولم يختلطوا بغيرهم وكلهم عرب مسلمون . وجانب الرصافة غالب اهلهِ من العرب البغداديين وفيهم لفيف من العجم الفرس والكرد والهنود والقرنجة وفيه بقية من بقايا التتر قوم هولاكو تسميهم العامة الكرد الفيلية . والقاسم لبغداد نهر دجلة يخترقها فيجري بين جانبيها كل جانب مطل على النهر بإطلال الجلالة على النيل الاعظم الا انهُ ليس هناك شارع يفصل بين القصور والمنازل وبين ضفة النهر ولكن الماء يتصل باسافل المباني فيستقي اهلها الماء بالدلاء والآلات الرافعة ويهبطون صلالم ينزلون بها الى شط النهر وقد تهم الحكومة بفتح شارع يمتد على الضفتين . والموصل بين الجانبين جسر خشبي مبني على نحو عشرين سفينة بين كل سفينتين ثلاثة امتار او اكثر وهذه السفينة يسميها العامة (جَسَّارِيَة) . واذا طغت دجلة لا يقوى على تيار الماء فيناق ايام الفيضان وربما يفاجئهُ الماء فيحطم ويغرق بعض سفنهِ او تنقطع حباله فيجدر به الماء . وقد تطول ايام الفيضان فتقطع المواصلات بين الجانبين وتأخر المسائل الكثيرة فمند ذلك يعبر النهر بالزوارق والقفف (جمع القفة) والعامة ينطقون القاف كالجيم المصرية او الكاف الفارسية . وهذه القفف مما يختص المراقيون باستعمالهِ فيقلون عليها الحبوب ويعبرون الانهار وهي صغيرة وكبيرة تحمل الصغيرة عشرة رجال والكبيرة نحو خمسين او ستين رجلاً وقد يغلب عليها الماء فتغرق او تصطدم بشيء فتتحطم ولهذا يمتنع الناس عن ركوبها الا من كان لهُ امر ذو بال فيركبها تحت رحمة القدر . وهي ذات شكل مستدير

تنسج من اعواد شجر الرمان والخوص والحلفاء ويطلى ظاهرها وباطنها بالقار (الزفت) وظاهرها اكثر طلاء . تصنع في ايام الصيف والحرك لها رجل او رجال يحركونها بجداف يدفعون به الماء مرة عن يمينهم ومرة عن شمائم ويسمون الجداف (غرّافة) واذا اجتمع فيها جماعة من الصراة يجدف قسم منهم يميناً وآخر شمالاً فتسير سيراً بطيئاً وهذه القفف احد المواريث التي ورثها القوم عن آبائهم البابليين والكلدانيين فقد كانوا يستعملونها ووجدت مرسومة على بعض آثارهم

جانب الرصافة

كان هذا الجانب داراً لحكومة العباسية ولا يزال الى اليوم محلاً للحكومة . فيه ثكناتها العسكرية ومجلس الولاية ودائرة البلدية ودائرة المعارف والحسبة والمحاكم وغيرها من المحلات الرسمية . وفيه مدارس الحكومة العالية والابتدائية والثانوية كمدرسة الحقوق ومدرسة المعلمين والمدرسة السلطانية والمدرسة الحربية ومدارس اخرى سنذكرها في غير هذا المجال وفيه جميع المحالّ التابعة للحكومة كمخبز الجيش ومصنع النعال والمنسوجات العسكرية وهذان الاخيران يعرفان (بالدباغخانه والصاغخانه) الاول مصنع لدبغ الجلود والثاني لنسج الملابس وصناعة النعال وهما محلان مهمان يمدان الجيش بما يحتاج اليه من اللبوس وهناك محلات غير هذه . لهذا تال جانب الرصافة قسطاً من اهتمام الحكومة لم ينلهُ الجانب الغربي . وسوق التجارة فيه ناشئة من كل تجارة تستبضع من الهند وفارس واوربا والشام والصين الاّ اتجارات الوطنية فان الكرخ يشركهُ في غالبها . وقد اخذ هذا الجانب يعمر لكثرة تردد الاجانب اليه ومكثهم فيه وكل معتمدي الدول لهم فيه قصور عالية منهم من اتخذ لهُ قصراً على ضفة دجلة كانكلترا والمانيا ومنهم من لهُ في الداخل مبانٍ فخمة تجتذب الانظار

وقد فتحت فيه بعض طرق متسعة وطليت ارضها بالزفت على نحو ما يرى في طرق القاهرة وفي هذه المدة جاءت الاخبار ان الحكومة العثمانية فتحت شوارع عامة في الرصافة عرض الشارع من ١٠ الى ١٦ متراً وكان المرحوم ناظم باشا فتح فيه شارعاً يخترق الرصافة طولاً ففي الاخير خرقت الحكومة طريقاً آخر يقطعها طولاً رأسهُ من الميدان ونهايتهُ الباب الشرقي وشقت خمسة شوارع تقطعهُ عرضاً الاول رأسهُ من الميدان والثاني اولهُ من الاكحلة : والثالث مبدأهُ من المصبغة والرابع من رأس القرية والخامس من جهة المتولي (انظر خارطة بغداد) ٥

وفي هذا الجانب آثار عظيمة للعباسيين مساجد ومدارس واطلال منازل وقد بدلت

كبري (جسر) السفن الذي تعبر عليه دجلة

مقتطف ابريل ١٩١٧

امام الصفحة ٣٧٤

اسماؤها باسماء جديدة تغلب عليها العجمة وكذلك اسماء الشوارع والاسواق والجوامع والمدارس بدلت باسماء غير الاسماء التي كانت تعرف بها في العصر العباسي ولهذه الآثار باب خاص بها

جانب الكرخ

في هذا الجانب انشأ امير المؤمنين ابو جعفر المنصور مدينة سنة ١٣٣ وبنى فيه دار الخلافة وبيوت العائلة العباسية ولقد بقي فيه آثار تدل على ما كان لهُ من الشأن في ذلك العهد المجيد وقد اصبح اليوم خرائب بالية وبيوتاً حقيرة تغيرت منهُ الرسوم وتهدمت القصور ودثرت المعالم وتبعثرت المنازل ومحيت الآثار وفي عمرانهُ فلو رآهُ ابو جعفر لانكرهُ ولو بعث الرشيد لقال ما هذه الخربات الخاوية وما هذه الدور البالية

ولم يبق من الكرخ الذي كان في ايام الخلافة العربية الاَّ هذا الجزء الحقير الذي يسميهِ العامة (صوب عقبل) وقد نسيت اسماء طرقهِ واسواقهِ وبدلت باسماء جديدة كما حدث في جانب الرصافة وآخر ما بدل منها محلة كانت تدعى محلة العباسيين فسميت بمحلة سوق الجديد اظن ذلك كان نحو سنة ١٨٩٥ م ولقد امرت الحكومة بتبديلهِ في هذا العهد وهي بهمها محو الآثار وتغييرها وقد فعلت هذا في كثير من الاطلال والرسوم العباسية في بغداد وغيرها

ولقد يكون لهذا الجانب عهد جديد في العمران والتقدم فان الحكومة تهتم بهِ فقد فتحت فيهِ سنة ١٩١٣ شعبة للبرق والبريد ولم يكن فيهِ برق وبريد بل كانا في جانب الرصافة فقط . والذي جعل الحكومة تهتمُّ بهِ ان محطة السكة البغدادية واقعة في جنوبهِ فانها اقيمت في المحلة المعروفة (بالكرّادة) امام اثر عباسي على ضفة النهر يعرف بالسن ولقد بنى الالمان هناك المباني الجميلة من قصور ومنازل وفنادق ومحلات لموظفي السكة ونظارها وكانوا سنة ١٩١٤ يحفرون ميناء للبواخر النهرية التي تسير بين البصرة وبغداد على مقربة من المحطة وكانوا مسرعين في عمران تلك الجهة بالحفر والدفن والبناء وانشاء القناطر والجسور وسد المنافذ التي تفيض منها المياه اذا طغت دجلة وكان هذا الجانب قبل ذلك تحيط بهِ المياه كل سنة في مواسم الفيضان وفي بعض السنين تغرق الحقول والجنان والمزارع وتمكث المياه محيطة بهِ شهوراً . فاذ ذاك تنتشر الكوليرا ويفسد الجو بهِ فمن يوم جاء الالمان واصلحوا الارض لم يحدث حادث من غرق وطغيان

وهذا الجانب يختص بتجارة الحبوب من بُرّ وشعير وسمسم وذرة ويباع فيهِ الصوف والسمن وفيهِ تجارة الفحم المستخرج من الشرك والطرفاء وبعض انواع الخشب وكل ما يجلب

الى بغداد من الحبوب يرد الى هذا الجانب وكل ما يأتي من البلاد الشمالية يأتي اليه ويعرض فيه على تجار الحبوب والمخكرين واثمان الاغذية فيه ابخس منها في الرصافة وكثير من اهل الرصافة يشترون اغذيتهم منه

ويتردد الى هذا الجانب كثير من تجار جزيرة العرب لاسيما النجديين الذين يتجرون بالخيل والابل وكل بخيل العراق ونجد حسناً وجمالاً . وجميع اعراب العراق يترددون اليه ببضائعهم وتجاراتهم وفيه كثير من تجار الخيل يرسلونها الى الهند واوربا وليس في جانب الرصافة امثالهم

وفي الكرخ مسجد الجنيد والسري السقطي والبهلول ومعروف الكرخي والحلاج والسيدة زبيدة زوج الرشيد وطاقية حسنة وفيه مساجد اخرى لغير هؤلاء من الاكابر . وسنأتي على ذكر مدارسه ومدارس الرصافة وذكر الاثار الباقية فيه والمساجد

عمران بغداد

الجاهل لتاريخ بغداد من اول امرها لو رأى ما بقي فيها من الآثار العباسية لاهتدى بذلك وعلم ان لها سابقة في العمران فقد كانت احسن مدن الشرق واعظمها وليس هذا يفتقر الى بيان فانهُ معروف مشهور . وهي اليوم لا كما يرى ويقرأ في صحف التاريخ بل قد تغير عنها كل شيء والتغيير يسرع اليها على مرّ السنين والقرون لما سنذكرهُ بعد وليس الخراب فيها جديداً بل هو قديم فان الرحالة ابن جبير وصفها وصف الحزين الاسيف وذكرها وذكر مجدها ايام كانت الخلافة العباسية في عنفوان شبابها . وما زالت ايدي الخراب تعثو فيها من يوم دخلت الدولة العباسية طورها الاخير الى ان دخلها هولاكو فدمرها تدميراً والذي يقرأ ما كتبهُ ابن جبير يجد ما يمثل لهُ حالة بغداد في عصره . وكان سمع عنها شيئاً ما رآهُ فلم يصدق الخبر الخبر . واذا قسنا بغداد التي زارها ابن جبير ببغداد الحاضرة نجدها قد تغيرت واستكثرنا ان تكون هي ومكذا سنن العمران تارة تسير بانحطاط وتارة بارتقاء على ان هذا التبدل الذي يحدث لدار السلام سريع لكثرة الحوادث التي تقع فيها من غرق وحرق وهدم وبناء وتعمير للديار والقصور فان القصر او الدار لا يعيش اكثر من ثمانين سنة . وقد كان البناء في عهد العباسيين ابقى على تداول الايام من البناء لهذا العهد بدليل ما بقي من آثارهم فهي اشد بناء واتقن وضعاً واطول عمراً . وربما يعيش البناء اكثر من ثمانين سنة وهو قليل والغالب ان لا يبقى اكثر من هذا وهذا بناؤهم عاش قروناً عدة والذي يزور المدرسة المستنصرية او القبة المنصوبة على قبر السيدة زبيدة او معسكر ابي جعفر لا يظن انهُ يزور اثراً مضى عليه

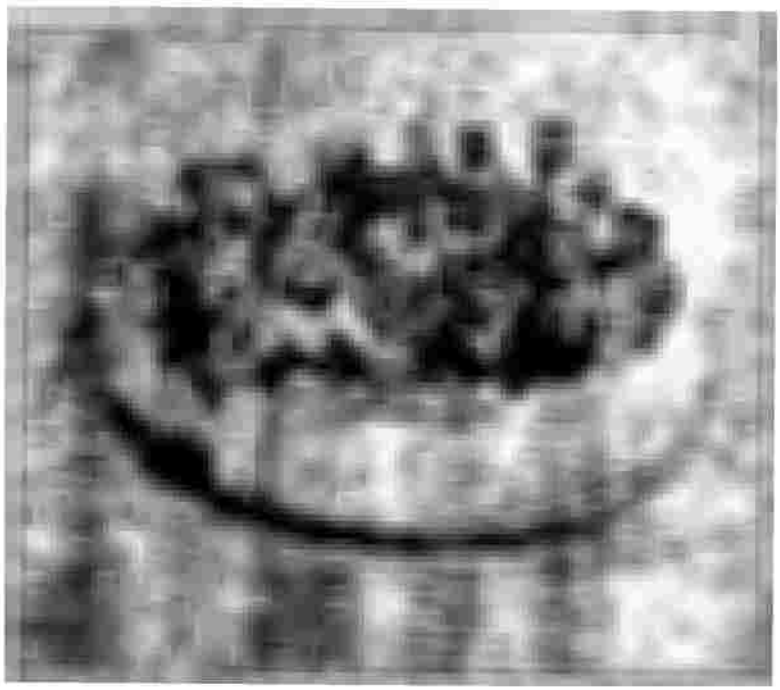

قفة يعبر بها نهر دجلة

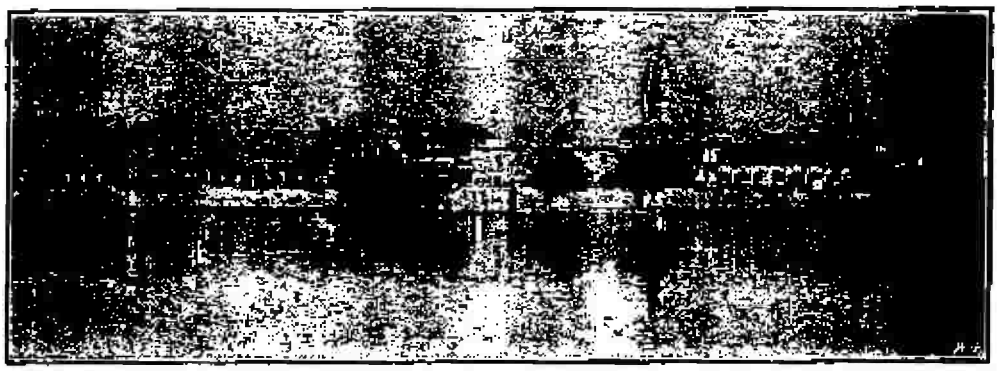

منظر آخر لمدينة بغداد

مقتطف ابريل ١٩١٧
امام الصفحة ٣٧٦

مئون من السنين لا يظهر على المباني من الجدة والرونق وهي قلما تحتاج الى ترميم ولولا ولوع الحكومة بهدم الآثار وتبديلها لبقيت قصور كثيرة من قصور الخلفاء كما بقي بعض المساجد والمدارس والاطلال

وانما يسرع الخراب للدور والقصور لاسباب منها جهل البنائين بالهندسة واصول البناء وهم ينشئون البيوت لا على علم وعرفان بل على ما يبلغ جهدهم من التحسين والوضع الجميل ومنها كثرة ما يصيب المباني من الامطار في كل عام . ومنها انهم يبنون بالآجرّ المحرق وهو المعروف عندهم بالطابوق — الطاباق — وهو لا يعيش اكثر من المدة السابقة ومنهُ الطابوق الاحمر الذي يوضع في اساس الجدران . والاصفر وهو حسن المنظر مستوي الوجوه يحرقونهُ في اتانين كبيرة مبنية بجوار بغداد في الصحراء . والطاباق من مواد البناء كثير في بغداد والبصرة وهو القرمد ويسمى في مصر الطوب وفي الشام قرميد وكان الكلدان والبابليون يستعملونهُ في البناء كما شوهد في آثار بابل . وحسن الهندسة وموافقة الموقع يجعلان البناء يعمر طويلاً ولما كانت تربة العراق صلصالية جصية هشة سهلة الكسرات لما فيها من المادة الكلسية — فان فيها من ١٢ الى ١٥ في المائة منها — كانت سهلة العجن والتصوير واذا طبخت صلبت واشتدت فاتخذ منها القرمد ويضرب مربع الشكل وظاهرهُ يساوي ٣٠ سنتيمتراً طولاً ومثلها عرضاً و ٦ سنتيمترات في الثخن وكذلك كان طاباق بابل وكلديا . وكثيرون من البنائين يقسمون الطاباقة و يضعون نصفها في البناء اقتصاداً في موادهِ وتوفيراً على الباني وكل ٤٢٤ واحدة تساوي متراً مكعباً . تبنى المباني والقصور من هذا الطوب وليس هناك صخر ينحت لان البلاد سهل وهي بعيدة عن الجبال الحجرية . ينشئون الدار ذات الطبقة والطبقتين والثلاث ولا يزيدون عليها والفقراء والمتوسطون يقيمون ابنيتهم بما يسمى عندهم (الجمّار) وهو القرمد المكسر القديم و بعضهُ جديد وهو ارخص من الاول ولا يعيش بناؤهُ كثيراً

شوارعها

لما بنى المنصور مدينتهُ وضع لشوارعها اسماء لم تبقَ الى اليوم بل بدلت وغيرت كما سبق ذكرهُ . وكيف لا تبدل وقد بدل كل شيء وجرت هناك حوادث وخطوب . ونذكر الآن ما في الرصافة والكرخ من الطرق المعروفة اليوم . فاطول شارع في جانب الرصافة الطريق الذي يبدأ من باب المعظم و ينتهي الى الباب الشرقي وهو يمتد طولاً من شمال

الرصافة الى جنوبها . واهم منهُ الشارع الذي فتح جديداً وكذلك الشوارع التي تقطعهُ عرضاً اهمها ما حدث من الشوارع اخيراً . ومن الطرق الشهيرة الطريق الذي مبدأهُ الجسر ونهايتهُ مسجد الشيخ عبد القادر وليس لهذه الشوارع اسماء خاصة بل لكل قطعة من الدرب اسم تسمى بهِ . فالشارع يجمع طرق كثيرة تختلف اسماؤها فيقطع الرصافة طولاً شوارع اولها شارع الميدان من باب المظم و يتصل بهِ شارع السراي و يتصل بهِ شارع جامع الوزير و يليهِ شارع سوق المرجة فشارع اليمنجية فشارع المبعية فشارع القرية فشارع السيد سلطان على المتصل بشارع الباب الشرقي وهو آخرها وهكذا كل الطرق الطويلة ولم يحدث تغيير في شوارع الكرخ . اشهرها الدرب الذي اولهُ راس الجسر ومنتهاه باب الكاظم وفي هذا الشارع الفداد ترا واي ا الذاهبة الى الكاظمية تجرها الخيل على سكة حديد انشأها المرحوم الطبيب الذكر مدحت باشا يوم ولايتهِ لبغداد . ومن الشوارع الشهيرة الشارع الذي اولهُ من الكريمات ونهايتهُ محلة الجبيجر وفي الكرخ شوارع تقطعهُ عرضاً . منها درب اولهُ راس الجسر ونهايتهِ مسجد معروف الكرخي الزاهد الشهير وطريق اولهُ باب السيف ونهايتهُ محطة (علاوي الحلة) وهناك غير هذين وكان اعرض شارع لا يزيد على ثمانية امتار الى ثلاثة واثنين . ولم تهتم الحكومة باصلاح الشوارع الا في المدة الاخيرة واذا امطرتها السماء تعسر السير فيها وسالت فيها المياه وكثرت الاوحال

اسواقها

اسواقها تعتبر اقساماً من الشوارع العمومية وكل صناعة وتجارة سوق مشتملة على جملة من المحلات الصناعية والتجارية واسواق الحدادين في الجانبين خاصة بالحدادين وعمال الحديد المعروفون عند عامة بغداد (بالحداحدة) الواحد حداد وسوق النحاسين في جانب الرصافة لباعة النحاس المعروفون عندهم (بالصفاقير) والواحد صفار وهو صانع الصفر بالضم وهو النحاس فالاشتقاق صحيح والجمع عامي . واسواق البزازين في الجانبين وهم تجار الاقمشة واسواق العطارين في الجانبين يبيعون التوابل والبزور والاصباغ وانواع السكر واشياء اخرى واشهر سوق لهم السوق التي في جانب الرصافة في الشارع الذاهب الى مسجد عبد القادر الجيلاني وفيها اسواق بيع البقول واللحوم والفواكه وسائر الاكل واسواق لبيع الحبوب كالرز والبر والشعير والحبوب الباقية واسواق لبيع الحبال والغزل والقطن . ولجميع الحبوب اسواق خاصة في الكرخ شارع فيهِ سوق تسمى سوق (العلاوي) وهي جمع (علوة والعلوة بلغة العامة المحل الذي تباع فيهِ الحبوب وصاحبها (علوجي) و يسمون المحل الذي

تجلب اليه البقول وتعرض عليهم للبيع (علوة الخضر) والخضر يطلقونهُ على البقول التي يطلق عليها اهل مصر اسم الخضار ومن اشهر اسواق الرصافة سوق المرج يباع فيها الاثاث البيوت والاسلحة والملابس ، سوق الغزل يباع فيها القطن والاوطئة

وهذه الاسواق كلها مسقوفة وفيها اسواق مرفوعة عليها القبب بنيت في عهد مدحت باشا ، بعض الاسواق سقفت بالصفيح . ويجتمع فيها الناس كل يوم وبعض منها تجمل لايام الجمع . وهناك اسواق فيها انواع الصناعات وفنون الاشغال ، فيها خليط من العمار ومنها سوق يباع فيها اخلاق الاثاث وقديم الادوات يكون في يوم الجمعة ومن اسواق الكرخ سوق اللبن وعلاوى الجص لبيع الجير والبورق ، واهم التجارة في ايدي اليهود فهم انجح عملاً واكثر ثروة وادنى الى الاقتصاد من غيرهم ولهذا ترى كثيراً من التجارات تكسد يوم السبت ولا تنفق ما دام اليهود في اعيادهم

دورها

تقدم لنا انا وصفنا المباني وصفاً اجمالياً ونريد هنا ان نذكر كلمة عن الدور البغدادية لنأتي على البحث من اهم اطرافهِ . اما الدور المطلة على دجلة فهي جميلة المناظر حسنة المباني يغلب عليها ان تكون مواقعها صحية لطلاقة هوائها وسعة انيتها واحكام وضعها على شروط الصحة ويسكنها اغنياء الناس وبيتها دواوين الحكومة وثكنات الجنود وبعض المدارس والمساجد ومنازل القناصل والقهوات والفنادق وهي احسن مواقع الرصافة والكرخ تزين بيوتها الاشجار والازهار وعروش الاعناب والنخل الباسقات . والخضر في دجلة يشامد اجمل المشاهد الطبيعية وابهج المناظر العمرانية . وبهذه المواقع يلتذ الناظر اكثر مما يلتذ بغيرها من محلات الجانبين فان فيها في الداخل شوارع ضيقة وحارات وازقة يحبس فيها الهواء الردئ والغالب ان تكون بعيدة عن الصحة لما يقع من الحكومة من اهمال النظر في النظافة وتسوية الطرق . ومن احقر الدور الدور التي يسكنها الوطنيون الفقراء والمتوسطون . ودور اليهود على اختلاف طبقاتهم احقر من غيرها واقل عمراناً وابعد عن الصحة . والدور التي يسكنها الاجانب من الفرنجة في الباب الشرقي من الرصافة من اجمل البيوت وهي احسن بيوت بغداد على الاطلاق . اما دور الفقراء واهل الطبقة السفلى فلا تسأل عن حقارتها وسوئها

مساجدها

الف استاذنا العلامة المؤرخ محمود شكري الالوسي كتاباً بحث فيهِ عن مساجدها ومدارسها فذكر تواريخ المساجد وانشائها ووصفها . ولا تزال فيها مساجد من ابنية

العباسيين ومن بعدهم وقد أحدث فيها مساجد عظيمة كمسجد داود باشا ومسجد الميدان ومسجد السراي وجامع عبد القادر الجيلاني . واهم الجوامع في الرصافة وليست في ذات شأن في الكرخ . وفي غالب المساجد مدارس يدرس فيها علم الدين وعلوم العربية وفي بعضها مكتبات تشتمل على كثير من نفائس الكتب الخطية يتيسر الانتفاع بها والاطلاع عليها كمكتبة الكبة في جامع الكبة والمكتبة المرجانية في جامع مرجان والمكتبة التي في جامع ابي حنيفة النعمان . وفي هذه المساجد الائمة والمدرسون والخطباء والقيمون والخدم والمؤذنون والقراؤن والمجدون يتقاضون رواتبهم من الوقف الجليس الذي تستولي عليه الحكومة وتنفق منهُ عليهم واكثرها يفرش بالبسط النفيسة العجمية الناعمة تحتها الحصر والبواري الواحدة بارية وهي حصر تتخذ من القصب (البوص) ويقال فيها بارياء وباريء بتشديد الياء في الثاني وقد استعمل الكندي هذا اللفظ في كتاب القضاة والولاة واستعملهُ المسعودي وابن مسكويه في تجاربهِ

وفيها منابر تبنى بالطوب او الرخام . ومن اجمل المنابر المنبر الذي في جامع عبد القادر الجيلاني ولا تعرف صناعتها من الخشب . وفي كل مسجد تالٍ يتلو القرآن ويرتلهُ كل ظهر جمعة ويجتمع اليهِ اخرون يجودون معهُ يبدأون من اول القرآن حتى يختمونهُ بخلاف العادة الجارية في مصر . وليس في منابرهم السلام كما هو معروف في مصر . وبلغت جوامع الجانبين بضعة وار بعين مسجداً للجمعة غير المساجد الصغيرة وبيوت الصلاة . وغالب المساجد فيها مقابر العلماء والاولياء عقدت على قبورهم القبب وتردد اليهم العامة بالزيارات والنذور ولهم في ذلك عادات تشبه عادات العامة في مصر في حسن الاعتقاد باهل المقابر وطلب البركة منهم والتوسل بهم

ويقيم في المساجد كثير من الغرباء والفقراء الذين يطلبون العلم ولهم بيوت وغرف في كثير من المساجد يسكنون فيها ويباح لكل طالب المكث فيها وفيها محلات للوضوء والطهارة على نحو ما يرى في مصر

مدارسها

كتب المستشرق الفاضل لويس ماسينون كتاباً عن المدارس في العصر العباسي باللغة الافرنسية ضمنهُ ابحاثاً جليلة فبحث في تاريخ المدرسة النظامية والتاجية والمستنصرية والمرجانية والسليمانية والمرادية والعمرية وغيرها من المدارس التي بعضها باقٍ وبعضها

دارس فمدارس الدين تكون في غالب المساجد وفيها المدرسون والعلماء يلقنون العلوم الدينية والعربية على الطريقة المتبعة في جميع البلاد الاسلامية وفي القطر المصري وهذه المدارس تفتح في اليوم بضع ساعات من اوله او آخره ولا يتردد اليها طلاب كثيرون فالمدرس لا يأخذ عنهُ اكثر من خمسة او ستة من الطلبة لكل واحد منهم درس يستقل به وقد يشترك اثنان في درس وهذا يدل على قلة الطلبة واهمال شأنهم . وطلبة علم الدين قليلون ولا يزالون يقلون كأنهم شعروا بسوء طريقتهم في التعليم فلجأ بعضهم الى مدارس الحكومة . مع ان الحكومة لم توجه اليهم النظر في اصلاح شأنهم وتهذيب تعليمهم . وليس لهم جرايات ولا أعطيات ولا اوقاف تصرف عليهم كما يرى في القطر المصري في الازهر والمعاهد الاخرى . والباقون من الطلبة لا يزالون متأخرين في علومهم وآرائهم وافكارهم لا يهتمون الا بما لا ينفع من العلوم ولا يتعلمون العلوم الحديثة وعلوم الآداب والتاريخ واللغة . والمدارس كثيرة في الرصافة قليلة في الكرخ واشهر مدارس الرصافة المدرسة المرجانية والمرادية والقادرية والكبرى ومدرسة الفضل وفي الكرخ مدرستان شهيرتان المدرسة العمرية ومدرسة الخضر الياس . هذا ما يقال اجمالاً عن مدارس الدين في بغداد نفسها . واما مدارس الحكومة فكثيرة وكان في بغداد وتوابعها في عصر الاستبداد ٢٤ مدرسة رسمية و ٦ مدارس لغير المسلمين واليوم تبلغ المدارس في بغداد وتوابعها ١٠٣ مدارس منها ٨٣ مدرسة رسمية و ٢٠ مدرسة اهلية او ٩٠ مدرسة للمسلمين و ١٣ لغيرهم . وعلى صورة اخرى ٦٧ كتاباً و ٢٩ مكتباً اي مدارس رشدية و ٥ مدارس اعدادية و ٢ عاليتان وهما مدرسة الحقوق والمدرسة السلطانية . وكان عدد تلاميذها ١٣٥٣٧ سنة ١٩١٣ هذا في بغداد وتوابعها . والمدارس التي في نفس بغداد لم اقع لها على احصاء . وفيها مدرسة المعلمين ومدرسة الحقوق ومدرسة الجندرمة ومدرسة الضباط الصغار ومدرسة حربية والمدرسة السلطانية ومدارس ابتدائية ورشدية . وكل المدارس في الرصافة الا مدرسة رشدية في الكرخ وبعض المدارس الابتدائية ومدرسة الضباط الصغار . ولسان التدريس في هذه المدارس كلها اللسان التركي ويتعلمون فيها ابناء العرب نحو اللغة العربية باللغة التركية ويتعلمون الفنون كلها بالتركية . فما تقدم يظهر تأخر العلم في بغداد مهد الحضارة العربية

آثارها

لا تزال الآثار في بغداد شاهدة لذلك العصر العربي بالعلم والفضل والمجد ولا يسعنا ان نتوسع في ذكر الآثار ووصفها فان ذلك يملأ مجلدات ونشر عنها المستشرق لويس ماسينون

ما يضيق عنهُ المجلدان . واهم الآثار الباقية المحوسة المستنصرية التي بناها المستنصر العباسي وجعلها محط الرحال وغاية الطالبين تضرب اليها اكباد الابل ، يقصدها طلبة العلم من الاقطار . وقد كادت آثارها تمحي فان الحكومة جعلتها ديواناً للكمرك ، وقسم منها جعل محلات تجارية رمتهُ ما جعل قهوة ولا تزال مكتوباً عليها تاريخ بنائها وترميمها بخط لا تصل اليهِ الايدي . وغرف الطابق باقية في الطبقة العليا والطبقة السفلى مكتوب على بابها تاريخ تعميرها وهي اكبر رحبة من الازهر واكثر غرفاً منهُ واحسن موقعاً . ومن الآثار ما بقي من طلل المدرسة النظامية ولم يبقَ الاَّ اسفل المأذنة التي كانت فيها وجعل يهود بغداد في موقعها دوراً يسكنونها وقد امحت كلها بتعاقب الايام عليها . وهذه المدرسة درس فيها ابو حامد الغزالي رحمهُ الله وكان فيها الخازن صاحب التفسير المشهور . ومن الآثار الباقية معسكر ابي جعفر المنصور شرقي الرصافة ويعرف اليوم بالطوبخانة . وهو واسع الاطراف لم تنتقض اطلالهُ والحكومة عاملة على نقضها لولا ما في البناء من الصلابة والشدة وهو محل جيش الفرسان الذي في بغداد ومحل الذخائر والادوات الحربية . وفي جانب منهُ مسجد وسجن للجناة الذين يزيد سجنهم على عشر سنين والمحكوم عليهم بالتأبيد ولهُ ابواب عدة . ومن الآثار الاطلال الباقية من سور بغداد في الجانب الشرقي والباقي منهُ باب يعرف عندهم بالباب الوسطاني وهو الباب الذي دخل منهُ هولاكو التتري سنة ٦٥٦ . ومنهُ الباب المعروف عندهم بالمنصور وكان هذا السور محيطاً ببغداد كلها الى عهد مدحت باشا سنة ١٣٠٥ هـ وسنة ١٨٨٧ م فلما ولي بغداد امر بهدمهِ ولم يبقَ منهُ الاَّ الابواب فحفظت الى اليوم . اما السور الذي بناهُ ابو جعفر لمدينتهِ فانهُ لم تبقَ منهُ باقية وفي سنة ١٩٠٨ هدم الباقي ودفن خندقهُ على ما اتذكر . فقد كنا اطفالاً نذهب الى الصحراء ونجد اسس السور ظاهرة ثم انها هدمت ودفنت . ومن الآثار التربة المرفوعة على قبر زبيدة زوج الرشيد وهي في الكرخ على مقربة من قبر معروف الكرخي وهي جميلة لم ارَ مثلها في مصر ذات شكل مخروط يرتفع الى نحو خمسين متراً ترى قبتها عن بعد . ومن الآثار جامع مرجان وجامع العاقولية وجامع القمرية في الكرخ واطلال تعرف عندهم بالسن والمنارة الباقية من المسجد الجامع المعروفة بمنارة سوق الغزل وهي الآن في خربة تطرح فيها الاوساخ والقمامات

القاهرة محمد الهاشمي البغدادي